أثر السيرة في إثراء المسيرة الفكري للتاريخ عند المسلمين

د.محمد قسم السيد محمد البليلة
*أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المشارك بجامعة الدلنج .
*الأمين العام لهيئة التقويم والاعتماد بجامعة الدلنج .

Abstract

The Effect of Sira on Enriching Muslims' thought of History

The muslim's history writing started with their study of the prophet's Sira. In it there is a description to his battles and flowers. The narrations of the early historians were so close to the Teller's style they were accurate, frank, and humane away from exaggeration and public stories. They were also away from unreal invented stories (Israiliat) that leaked into some of the history writings in later periods. So, the Islamic history grew in relation to the Islamic culture's development, which is based on the prophet's care of writing, and when he connected the release of war prisoners (of Budr) by teaching ten muslims to write. In addition to that, the prophet wrote Guran, and messages to kings inviting them to believe in Islam. Because of the necessity for Muslims to know about the prophet's news of Sira, news of battles and "Sunna, a group of tellers or narraters emerged. They kept these news through verbal narration first, then writing them . All this was done to use the Sira as an ideal model to be followed and to depend on it in Islamic jurisprudence. (Al tashree). This resulted in the appearance of a big number of bookes in Sira and the battles. This helped in the development of history writing for muslims.

مستخلص

نشأ اهتمام المسلمين بالكتابة التاريخية، نشأة اهتمامهم بدراسة سيرة الرسول، (صلى الله عليه وسلم)، وصف مغازيه وصحبة ؛ فقد كانت روايات المؤرخين الأوائل أقرب إلى منهج المحدثين، من حيث الدقة والصراحة والنزعة الإنسانية، والعزوف عن المبالغة والقصص الشعبي والإسرائيليات التي تسربت إلي بعض الكتابات التاريخية في مراحل تالية من مراحل تطور علم التاريخ عند المسلمين؛ لذا نما التاريخ الإسلامي، في حدود

التطور الثقافي الإسلامي علي أرضية صلبة لحمتها وسداها، اهتمام الرسول، (صلي الله عليه وسلم) بالكتابة، وتوجيهه المسلمين للعناية بها، ويبدو ذلك واضحاً في جعله فداء اسري بدر ممن يعرفون القراءة والكتابة أن يُعلَّم الواحد منهم عشرة من أبناء المسلمين.فضلاً عن استعماله الكتابة في تدوين ما ينزل من القرآن، وإرسال الرسائل للحكام والملوك يدعوهم للدخول في الإسلام. دعت الحاجة المسلمين إلى الوقوف على أخبار سيرته ومغازيه سننه(صلى الله عليه وسلم) فبرزت طائفة من الرواة عملت على حفظ هذه الأخبار عن طريق الرواية الشفوية، ثم عن طريق التدوين، بغرض الاهتداء بهديها والاستناد إليها في التشريع، فنتج عن ذلك كم هائل من المؤلفات في السيرة والمغازي، طوَّر من مسيرة الفكر التاريخي، في كتابة التاريخ عند المسلمين.

المقدمة

يلاحظ أن الكتابات التاريخية الإسلامية التي ظهرت إنما وضعت على أساس إسلامي بحت، كما نظمت على أساس التقويم الإسلامي الهجري الذي ظهر مبكراً ليعين على تنظيمهاومن ذلك يفهم أن عمليات التدوين التاريخي نشأت مستقلة تمام الاستقلال في موضوعاتها ورجالها وتقويمها الخاص عن تواريخ الأمم الأخرى ومن ثم لم يكن"التاريخ الإسلامي" استمرارا أوصله للتواريخ القديمة، وإنما هو تأريخ إسلامي خالص، وقد نما النمو المستقل الطبيعي ضمن حدود التطور الثقافي الإسلامي وإبعاده، في إطار حاجات المجتمع الإسلامي وخصائصه

فقد كان الرسول(صلي الله عليه وسلم) يهتم كثيراً بالكتابة ويوجه المسلمين للعناية بها، حتى لقد جعل فداء الأسري في غزوة بدر((2هـ/624م))، ممن كانوا يعرفون القراءة والكتابة أن يُعلَّم الواحد منهم عشرة من أبناء المسلمين بالمدينة .

وقد استعمل الرسول(صلي الله عليه وسلم) الكتابة في تدوين ما ينزل من القرآن، وفي إرسال الرسائل إلي الملوك والحكام يدعوهم فيها إلي الإسلام. وكان أول من كتب له بمكة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وأول من كتب له بالمدينة أبي بن كعب وزيد بن ثابت، ولما فتحت مكة وأسلم معاوية بن سفيان انضم إلى كتبة

الوحي من أصحاب الرسول(صلي الله عليه وسلم)، ولم يكن الورق المعروف الآن قد وجد عند العرب، ولذا كانت الصحف التي يكتبون فيها هي القماش والجلد والعظام العريضة والحجار الرقيقة و الأطراف العريضة من الجريد.

الاتجاه التعزيزي للسيرة في توجيه الفكر التاريخي عند المسلمين

إن تاريخ العرب والمسلمين حقاً مدين في الاهتمام به وروايته وتدوينه لسيرة الرسول(صلى الله عليه وسلم) وأخبار غزواته. فقد دفع حرص المسلمين على معرفة أخبار سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) طائفة من الرواة لحفظ هذه الأخبار ونشرها عن طريق الرواية الشفوية، ثم عن طريق التدوين، ولا يدخل عنصر المحبة والتعظيم وحده لهذا الاهتمام بسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فإن انبهار العرب والمسلمين بما أحدثه النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) من انقلاب شامل في جزيرة العرب، فقد دعاهم إلى التعرف على سيرته وخطوات جهاده، على أن عنصر "المصلحة الإسلامية العامة" كان من البواعث المضافة إلى هذا الاهتمام ؛ فإن الوقوف على أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأفعاله كان ضرورياً جداً للاهتداء بهديها، والاستناد إليها في التشريع وفي السلوك السوي في الحياة . كما أن غزواته (صلى الله عليه وسلم) وغزوات أصحابه كانت لوناً من المعرفة يبصر الناس بحياة نبيهم لما ترتب عليها من أحكام يحتاج إليها المسلمون في وضعهم الجديد، كالذي ترتب على المغازي من فتح ديوان العطاء، ومن معرفة ادوار الرجال في حركة الغزوات .(1) وانتقل الاهتمام بالسيرة من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والصحابة والتابعين إلى "فئات" خاصة من المشتغلين بعلم أو فن، أو حرفة خاصة، كالنحاة، والفقهاء، و المحدثين، والمفسرين، ثم إلى الشعراء، والأطباء، والمتصوفة، ثم الولاة، والقضاة، و الأدباء، وتلك هي كتب "الطبقات" التي تهتم بسيرة أفراد يجمعهم عمل واحد، أو اتجاه واحد، أو صفة واحدة، وكان أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أحرص الناس على الإقتداء به وترسم سيرته وأثاره، فكان من يستطيع الكتابة منهم يسجل عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما يسمعه أو يراه .

ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نهاهم عن ذلك حتى تكون عنايتهم كاملة بالقرآن الكريم وحتى لا يؤدي ذلك إلى أن تختلط بعض أقواله ببعض أقوال بعض الآيات من القرآن الكريم، ولم يكن يبيح الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتابة السنة إلا في أحوال نادرة وظروف خاصة.وقد كان نتيجة لذالك أن الصحابة رضوان الله عليهم، وهم أحرص الناس على القدوة بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والاهتداء بهدية جعلوا من قلوبهم وصدورهم صحفاً يسجلون فيها ما يسمعونه من الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما يعلمونه عنه.(3)، ويتنافسون في ذلك حتى بلغوا أقصى الغايات. ولم يكن للرسول (صلى الله عليه وسلم) مكان خاص دائم يجلس فيه ليتلقى عنه أصحابه وإنما كان يغدو ويروح. ويسافر ويقيم، وأصحابه(4) يحيطون به ليأخذوا عنه ما يشفي غلتهم ويحي قلوبهم، وكان من أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) من يلازمه في ظعنه وإقامته وفي حله وترحاله كأبي هريرة وأبي بكر الصديق، رضي الله عنهما. وكان منهم من تدعوه الضرورة إلى أن يتخلف بعض الوقت لقضاء مصالحه . ومن هؤلاء من كان يعهد إلى جاره أو صاحبه أن ينقل إليه ما يقوله الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو يفعله في فترة تخلفه حتى إذا حضر أخبره به ليبقيه هو الآخر في صدره ثم يخبر به الآخرين في دقة وفهم وحرص وأمانة.(5) أما من بَعُدت عليهم الشُقة ونأت بهم الديار فكانوا إذا اعترضتهم مشكلة وعجزوا عن حلها توجهوا من فورهم إلى مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مهما بذلوا من تضحية، ومهما تحملوا من المتاعب المضنية ليستضيئوا بنور النبوة وليتبين لهم الخير من الشر والحلال من الحرام.(6) وبعد أن لحق الرسول (صلي الله عليه وسلم) بالرفيق الأعلى، وجاء عصر الخلفاء الراشدين تركز اهتمامهم في جمع القرآن الكريم وتدوينه في مصحف واحد وتوزيعه على جميع الأمصار الإسلامية. وهكذا بعد وفاة الرسول(صلى الله عليه وسلم) قدم الصحابة والتابعين من بعده أكثر من دليل على قيمه الرجال في توجيه الأحداث وتحسين المصائر. والإسلام نفسه عزز هذا الاتجاه الفكري، من خلال بيانه للمواقع المتمثل في قوله تعالي " من المؤمنين رجالُ صدقوا ما عاهدوا الله عليه " (7)

وهكذا نشأت عند المسلمين "السيرة". أو ترجمة الحياة . وهذه فرضت نفسها على الفكر التاريخي، وراحت تعم وتشمل، وتطور حتى تحولت إلي فن قائم بذاته كما هو شأنها لدى ابن حيان التوحيدي على سبيل المثال .(8)

وعلى الرغم من أن الصحابة والتابعين في القرن الأول الهجري كانوا يتدارسون الحديث النبوي بعناية إلا أنهم لم يكتبوه في صحف خاصة به كما تقدم ذلك، وقد مضى القرن الأول الهجري على هذا النحو ولما كانت نهايته، كانت الظروف كلها تحتم كتابة الحديث، فالخصومات السياسية والخلافات المذهبية، وما ترتب على ذلك من الفتن، لا تزال ناشئة والأهواء متصارعة، وأعداء الإسلام يتربصون به الدوائر، ويتخذون كل سبيل لتشويه معالمه.(9)

ولو تركت السنة دون تدوين لتعرضت للضياع بموت العلماء والأمناء والحفاظ الثُقات، وتعرضت كذالك للتحريف والتغيير بما يدسه فيها أصحاب الهوى والفوضى من الوشاة والكذابين الذين اتخذوا الدين ستاراً ينفذون من ورائه إلى أغراضهم ومطامعهم وكان من توفيق الله ورحمته بالمسلمين أن يتولى الخلافة في ذلك الوقت عمر بن عبدالعزيز، رضي الله عنه، وهو الحاكم المخلص الحريص على دينه . فنهض لإعلاء كلمة الله وإحياء سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتجلى ذلك في كتابه الذي أرسله إلى الولاة والعمال في الأمصار الإسلامية، والذي يخاطب فيه عامة المسلمين فيقول :"وفي الذي علمكم الله من كتابه . والذي سن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، من السنن التي لم تدع شيئاً من دينكم ولا دنياكم، وفي ذلك كله نعمة عظيمة وحق واجب هو شكر الله كما هداكم وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فليس لأحد في كتاب الله ولا في سنة رسوله رأي . وهما حجتي في الدنيا وبغيتي فيما بعد الموت. فلا تلبسوا ذلك بغيره" .(10) ثم اتبع هذا القول الذي يفيض بالإخلاص لكتاب الله ولسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) بعمل ايجابي عظيم فكتب إلى عامله وقاضيه على المدينة أبي بكر بن حزم يأمره بجمع السنة وتدوينها، ويقول له : " انظر ما كان من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

فاكتبه فإني خفت دروس العلم و ذهاب العلماء". وكذلك كتب إلى عُمَّاله في أمهات المدن الإسلامية يأمرهم بجمع السنة وتدوينها، فاستجابوا لأمره، وكان أول من قام بهذا العمل الجليل محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنه (124هـ/748م)، وفي ذلك يقول الحافظ بن حجر:"ولما قصرت الهمم وخشي الأئمة ضياع العلم دونوه، وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز ثم كثر التدوين وحصل بذلك خير كثير والحمد لله ".(11)

ولقد أدرك المسلمون أثر الرجال في صنع التاريخ وعلى نحو لم يسبق له مثيل في الموضوعية وصفاء الإدراك إذ قدم لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) "المثل" الحي الذي أخذ عليهم كل سبيل ، أمام الواقع التاريخي الذي لا يملك أحد نكرانه في سيرته العامة.-

والقرآن الكريم هو المصدر الأول لدراسة علم التاريخ عند المسلمين ويليه الحديث والسنة، وكانت بداية "التأليف العلمي" في التاريخ وثيقة الصلة بهذين المصدرين، وعلى هذا الأساس كان علم التاريخ، العربي الإسلامي عند نشأته يقوم بادئ ذي بدء على دراسة "سيرة النبي صلى الله عليه وسلم " و أخبار غزواته ومن أسهم فيها، وكان مركز هذا النشاط في هذه الحركة التاريخية يتمثل في مكة والمدينة .(12)

وكان المؤرخون الأوائل من المسلمين يعتمدون فيه على الروايات الشفهية شأنهم في ذلك شأن رواة الحديث، فكان كل جيل منهم يستمد أخباره من الجيل السابق . وكان الخبر التاريخي يستمد من السماع على الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما يعرف بالأسانيد، وهي وسيلة للإجماع علي صحة الخبر، وهي الوسيلة نفسها التي اتبعها المحدثون في روايتهم للحديث، مما يدل على أن التاريخ عند المسلمين عند نشأته سلك الطريقة نفسها التي سلكها الحديث، فكان الخبر التاريخي على هذا النحو يتألف من عنصرين: رواة الخبر على التتابع، ويعرف ذلك بالسند أو الإسناد، ثم نص الخبر ويسمى المتن .

وأقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين الحديث والتاريخ هي كتب المغازي والسيرة فقد دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله للاهتداء بها والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي، وفي النظم الإدارية، وحث الكُتاب على

الكتابة في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفي مغازي الصحابة، ويستنتج من هذه الكتب ما يلي: إن أكثر كُتَّاب السيرة الأولين كانوا من أهل المدينة لأن أكثر أحداث السيرة من تشريع مدني ومغازي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) فيها وكان من حوله أصحابه أعرف الناس بتلك الأخبار، فكانوا يتحدثون بها ويرونها، وتناقلها عنهم التابعون ومن بعدهم حتى دونت في المدينة ثم العراق.

كانت السيرة والمغازي جزءً من الحديث يرويها الصحابة، كما يروون أحاديث الصلاة والصيام، وكان من بعدهم يرويها عنهم كما يرون أحاديث العبادات و المعاملات، ويصل بعضها ببعض، وعني بعض العلماء بهذه الناحية "التاريخية"، كما عني غيرهم بأحاديث الأحكام، ثم أفردت بالتآليف، وضم إلى الحديث غيره من أخبار الجاهلية، وما في يد الناس من شعر.(13)

سلك المؤلفون الأولون في السيرة مسلك المحدثين الأولين، فمنهم من كان يعني بالإسناد ومنهم من لم يعن به، واضطر ابن أساق و الواقدي وأمثالهما "مراعاة لسير الحوادث وأخذ بعضها برقاب بعض " أن يجمعوا الأسانيد، ويجمعوا بعد ذلك المتن، من غير أن يفرزوا كل جزء من المتن بسنده، فهاجمهم المحدثون من أجل ذلك، ولكن عذر المؤرخون عنايتهم بعرض الحادثة كاملة في إيجاز تسهيلاً على الكُتَّاب والقرَاء.

وكانت طريقتهم في التدوين في ذلك الوقت أن يتبعوا وحدة الموضوع فهم يجمعون في المؤلف الواحد الأحاديث التي تدور حول موضوع واحد، فالصلاة مثلاً تخص بمؤلف وتجمع فيه كل الأحاديث الواردة في الصلاة، وهكذا الزكاة والصوم والحج إلي غير ذلك من سائر الموضوعات.(14) ومن المعروف إن هذه الكتب التي دونت في تلك العصور ليس لها الآن وجود مستقل فقد أدمجت في المصنفات الكبيرة التي كتبت بعد ذلك.(15

علماء المصنفات الكبيرة في الأمصار :

في المدينة كان ربيعة الرأي مولي آل المنكدر التيميين وهو شيخ الإمام مالك بن أنس، وكان فقيه المدينة في وقت غير منازع حتى كان القاسم بن محمد يقول: " لو

تمنيت أحداً تلده أمي لتمنيت ربيعة". وكان يجلس في مسجد المدينة وحوله حلقة كبيرة من العلماء والأشراف يتلقون العلم عنه،وقد اتفق العلماء من المحدثين وغيرهم على توثيقه و جلالته وعظم مرتبته في العلم والفهم وكانت وفاته سنة 13هـ.(16)، وكان من علماء مكة مجاهد بن جبر مولي قيس المخزومي، وكان فقيهاً عالماً ثقة كثير الحديث، وهو من أكبر رواة التفسير عن ابن عباس حتى كان يقول: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة"، توفي سنة 102هـ. وعكرمة مولي ابن عباس، وكانت له شهرة علمية فائقة حتى يروي عن معمر بن أيوب أنه قال :" قدم علينا عكرمة فأجمع الناس عليه حتى أصعد فوق ظهر بيت، وكان من أعلم الناس بالتفسير" وقد توفي سنة 105هـ، وهو وكثير عزة في يوم واحد، وصلي عليهما في مكان واحد وقال الناس إذ ذاك : "مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس "(17)

واشتهر من علماء الكوفة سعيد بن جبير مولي بني والبة بن الحارث. واشتهر من علماء البصرة الحسن البصري ومحمد بن سيرين. واشتهر في مصر يزيد ابن حبيب مولي الأزد وكان مفتي الديار المصرية، وعنه أخذ الليث بن سعد وعبد الله ابن لهيعة، وكان يزيد بربري الأصل، وقال فيه الليث بن سعد: " يزيد عالمنا وسيدنا وهو أحد ثلاثة عهد إليهم عمر بن عبدالعزيز بالفتيا في مصر، وقد جمع ناصيتين كبيرتين من نواحي العلم، إحداهما الناحية التاريخية، فيروي عنه الكثير في حروب مصر و فتنها وفتوحها، والثانية الناحية الفقهية، فكان واسع العلم في الحلال والحرام حتى قيل إنه أول من أظهر العلم في مصر والمسائل في الحلال والحرام"، وتوفي يزيد في سنة 128هـ.(18) ولاشك أن السيرة النبوية لا تخرج كثيراً عن السُنة النبوية، لأن السُنة النبوية هي أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله و تقريراته، فكل الأخبار التي وردت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد بعثته هي سُنة وحديث، وهي في الوقت نفسه سيرة وتاريخ.وأما ما ورد عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أخبار قبل بعثته فبعضه يدخل في نطاق السُنة وهو ما أخبر عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد البعثة، وهو يسترجع الذكريات الماضية عن العصر الجاهلي، ومن ذلك ما ذكره عن حرب

الفجار، وما ذكره عن حلف الفضول وما ذكره عن حادث شق الصدر أيام طفولته إلى غير ذلك.(19)

أما ما عدا ذلك من أخبار تتعلق به فلم ترد في كتب السُنة فقد تناقلها الناس على توالي الأجيال إلى أن دونت بعد ذلك في كتب التاريخ والسيرة.(20)

وقد كتب المحدثون تاريخ النبي (صلى الله عليه وسلم) في أحاديث متفرقة، وغير ترتيب للأحداث ولا جمع للموضوعات. فلما رتبت الأحاديث في أبواب وجمع منها ما يتعلق بكل باب على حده كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد إلي غير ذلك، جُمعت السيرة في أبواب مستقلة، وكان من أشهرها باب يسمي "باب المغازي والسير"، ثم انفصلت هذه الأبواب عن الأحاديث وألفت فيها الكتب الخاصة، ولكن ظل المحدثون يدخلونها ضمن الأبواب الواردة في كتبهم، وتستطيع أن تلاحظ في صحيح البخاري، حيث خصص باباً سماه "كتاب المغازي". وكذلك في صحيح مسلم حيث جعل للجهاد باباً سماه "كتاب الجهاد والسيرة". وكذا ما جاء في سند الإمام أحمد ابن حنبل من"كتاب المغازي" إلى غير ذلك من سائر الأبواب المتعلقة بسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

أشهر من دون المغازي:

كان الزهري أول من استعمل لفظ "السيرة" تعبيراً عن حياة الرسول (صلى الله علي وسلم) وتناول في السيرة المغازي، وفتح مكة،وبعض سفارات النبي ،والوفود التي قدمت عليه، وأهم المعالم البارزة في حياته(صلى الله عليه وسلم) إلى التحاقه بالرفيق الأعلى.(21). وكان الزهري من أسبق الناس إلى تدوين علمه وأخباره ومروياته، حتى أنه قال عن نفسه :"ما نشر أحد الناس هذا العلم نشري، ولا بذل بذلي". وتظهر همته وجده في جمع الحديث وتدوينه باعترافه هو واعتراف غيره. وقد نفعه اهتمامه بجمع الحديث في اهتمامه بسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومغازيه. وهي سيرة مجموعة من الحديث ولا من أقوال الرواة والإخباريين.(22)

كذلك برع موسى بن عقبة مولى الزبيريين ولعل صلته بعروة بن الزبير ابن العوام قد أفادته، حتى شهد علي ذلك الإمام مالك بن أنس بقوله عنه :"عليكم بمغازي ابن عقبة؛ فهي أصح المغازي".(23)

وبرع كذلك محمد بن إسحق بن يسار من الموالي ويرجع نسبه إلى فارس، فقد ولد في عام 58هـ، في المدينة ونشأ فيها. وكان بها حينئذ طائفة من أجل العلماء فسمع منهم وأخذ عنهم ومنهم محمد بن أبي بكر الصديق، وأبان بن عثمان بن عفان ومحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ونافع بن عبد الله بن عمرو بن شهاب الزهري. ثم رحل إلى مصر سنة 115هـ، وسمع من يزيد بن حبيب، ثم عاد بعد ذلك إلى المدينة و كان يجمع الأحاديث وخاصة ما يتصل منها بالمغازي حتى اشتهر بها وكان الإمام الشافعي يقول عنه:"من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحق".(24)

كذلك الواقدي: وهو محمد بن عمر بن وأقد الواقدي، وهو أيضاً من الموالي، وقد عاصر بن إسحق و كان أصغر منه سناً، وهو يعتبر في الدرجة التي تليه. ومن أشهر شيوخه في التاريخ أبو معشر السندي وكان أبو معشر هذا واسع العلم بالمغازي وألف فيها كتباً اقتبس منه "ابن اسعد" في كتابه "الطبقات الكبرى" عند الكلام في السيرة، وكذلك اقتبس منه "ابن جرير الطبري" في كتابه "تاريخ الأمم والملوك". وقد ولد الواقدي سنة 130هـ وعني بالمغازي والسير والتاريخ الإسلامي عامة ونبغ في ذلك وقد وردت له ترجمة في تاريخ البغدادي للخطيب البغدادي وفيها يقول عن الواقدي:"وهو ممن طبق شرق الأرض وغربها ذكره، ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أمره وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي (صلى الله عليه وسلم) والأحداث التي كانت في وقته وبعد وفاته. ومما يروي عنه أنه كان يذهب بنفسه إلى أمكنة الغزوات وموطن قتل الشهداء من أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان يقول عن نفسه:" ما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه".(25). ومحمد بن عمر الواقدي هذا هو الذي كشفه أو اكتشفه يحيى بن خالد البرمكي للخليفة هارون الرشيد. فقد زار الرشيد مدينة الرسول (صلى الله عليه

وسلم)، سنة 170هـ فقال لوزيره يحيى:" ارتد لي رجلاً عارفاً بالمدينة والمشاهد. وكيف كان نزول جبريل عليه السلام على النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن أي وجه كان يأتيه، وقبور الشهداء فسأل يحيى بن خالد البر مكي حتى اهتدى إلى "الواقدي" فقدمه إلى هارون الرشيد فعرفه معالم مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطلب منه يحيى أن يصير إليه في العراق، على نحو ما تفعله الدول اليوم في استقدام العقول البشرية إليها، ونشر علمه ورواته هناك.(26). وكان الواقدي كثير التأليف وله كتاب اسمه "التاريخ الكبير" مرتب على حسب السنين، وقد اقتبس، منه الطبري في تاريخه، وأخر ما اقتبس منه ما ذكره من حوادث سنة 179هـ وله كتاب "الطبقات" وقد ذكر فيه الصحابة والتابعين مرتبين حسب طبقاتهم. وقد سلك كاتبه "ابن سعد" هذا النهج في كتابه "الطبقات الكبرى" . وهكذا كان الواقدي من أوسع الناس علماً في المغازي والسير، وقد عول عليه الطبري كثيراً وكان من أكبر المصادر التي اعتمد عليها في تاريخه (27).

– الإخباريون:

وقد ظهر بجانب مؤرخي المغازي والسير طائفة أخرى من"الإخباريين" الذين اهتموا بالأخبار القديمة، والقصص، اهتماما طغى على المغازي و السير. ويبدوا أنهم وجدوا في هذا اللون من الأخبار والحكايات والنوادر والأشعار تسلية للسامع قبل التدوين، والقارئ بعد عصر التدوين، كما وجدوا فيها ملء مجالس السمر عند الأمراء. ومن عجب أن المساجد اتسعت لهؤلاء الإخباريين الذين كانت أخبارهم تحتوى على كثير من التواريخ المزدحمة بالقصص والأساطير والبطولات المبالغ فيها، والأشعار المثيرة للانفعالات، وأخبار القبائل وما كان يدور بينها. ولا شك أن هؤلاء الإخباريين، كانوا برواياتهم، النواة الأولى للرسائل التاريخية التي أخذت بعد ذلك تظهر وتؤرخ للأحداث التي ظهرت منذ العهد الإسلامي، وتلونت بلون معين كحوادث الردة، وفتوح الشام و العراق، ومصارع الخلفاء، والخلاف بين الأمويين والعلويين، وقيام الدولة العباسية وغير ذلك من الأحداث التاريخية التي أخذت تظهر بكثرة في العالم الإسلامي.(28).

ولقد اهتم الإخباريون بهذه الحوادث رواية وتدويناً، وأقبل الناس عليها أول الأمر لما فيها من معرفة بالحقائق حول قيام الدولة الإسلامية، وسقوط الإمبراطوريات القديمة كالفرس والروم . وهؤلاء العلماء لهم، بلا شك، فضل السبق إذ هم الذين وضعوا الأساس لمن جاء بعدهم، ولكن لم يكن تأليفهم مرتباً ولا عملهم منظماً، إنما كثر الترتيب والتنظيم في الطبقة التي أتت بعدهم، وتلمح ذلك في كتاب "فتوح البلدان" للبلاذري وتاريخ "الأمم والملوك" للطبري والى غير ذلك من سائر الكتب التاريخية التي كتبت في ذلك الحين.(29) هكذا يتبين لنا أساس الحركة العلمية في العصر الإسلامي الأول، كان هو الدين الذي يتمثل في القرآن الكريم،والسنة النبوية. فأساس الفقه هو ما ورد في آيات قرآنية أو أحاديث عن النبي(صلى الله عليه وسلم) تتعلق بالعبادات والمعاملات. والتاريخ الإسلامي مستمد من سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وغزواته وبحث العلماء يتركز ويدور حول هذا الغرض.(30)

ولذا فقد كان الفقه والتفسير والحديث والتاريخ، كان هذا كله علماً واحداً في أوائل الإسلام. ثم أخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء، ولكن استقلال العلوم وتميزها ظل غير ملحوظ طيلة العصر الأموي على وجه التقريب، ففي كتب التراجم عن علماء هذا العصرما يفيد أنهم كانوا يأخذون من كل علم بنصيب وافر، وأن العلوم التي استقلت في ما بعد لم تكن في نظرهم مستقلة إذ ذاك (31)

فالحسن البصري مثلاً يجلس في دروسه فيتكلم في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ دون أن يلاحظ أنه ينتقل بهم إلى مجموعة من العلوم وإنما يفهمون أنهم حضروا درساً من العلم الديني. ولم يكتمل نضج العلوم وتميزها إلا في العصر العباسي فظهر الفقهاء والمفسرون والمتحدثون والمؤرخون وألفوا الكتب الكثيرة في هذه النواحي المختلفة، فأصبح لكل علم منها مجاله واستقلاله.وبالتالي أصبح للتاريخ رجاله وهم المؤرخون السابقون ومن جاء بعدهم على توالي الأزمنة والقرون.(32)

الخلاصـــة

تخلص هذه الورقة في تناولها لأثر السيرة في إثراء المسيرة الفكرية للتاريخ عند المسلمين إلى النقاط التالية:

- أولا: أن اهتمام المسلمين بالكتابة التاريخية نشأ مع نشأة اهتمامهم بسيرة الرسول)

- تاسعاً: ضرورة دراسة التفسير القرآني وحدوده وأحكامه، أدت إلى تسجيل أخبار الجاهلية وعصر الرسالة وهنا تكون المسيرة الفكرية التاريخية لدى المسلمين قد قويت واستوى عودها.
- عاشراً: قيام الدولة الإسلامية المترامية الأطراف وفتوحاتها وحاجة المسلمين وغيرهم إلى ضرورة تسجيل مراحل نشأتها،وصفاً وتحليلاً، وتعليلاً. كل ذلك كان سبباً في ظهور الحاجة لتسجيل التطور الثقافي للأمة الإسلامية وعلاقاتها بالثقافات العالمية تأثرا وتأثيراً.
- حادي عشر: نقلت كتابة سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووصف مغازيه حركة التدوين الفكري التاريخي عند المسلمين من الذاكرة إلى الشكل المكتوب.